مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com ISSN online: 2414-3383 ISSN print: 2616-3810
العدد (28) أب - اغسطس 2018

الستور حتى نهاية العصر العباسي
(أنواعها وطرق استعمالها)

د. عبد العزيز حميد
جامعة بغداد

د. سيما عطا الله السعدي
جامعة الكوفة

الخلاصة

ما هو الامر مع الملابس التي يستر بها الانسان جسده فإن الستر والجمع ستور وأستار، هو كل ما يستر به جوانب من الدور السكنية والقصور. وهو ما يثبت أو يعلّق على فتحات النوافذ والمجالس وغيرها لإخفاء ما يريد المرء إخفاءه عن أعين الغرباء والمتلصّصين؛ ولهذا السبب تعد الستور من مكملات أو من ضرورات رياش الدور والقصور فضلا عن الكثير من المباني العامة فلابد والحالة هذه أن تكون الستور قد خضعت هي الأخرى وشأنها في هذا شأن الملابس إلى التذهيب والتحوير؛ فقد مرت بسلسلة من التطور والتحسين منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، وكانت النوافذ في بادئ الامر مخرمة وظلت النوافذ المخرمة في قيد الاستعمال عبر العصور الإسلامية المتعاقبة حتى أواخر العصر العثماني في مختلف الأقاليم الإسلامية ومنها في العراق حيث نلاحظ أن معظمها كان من الخشب المتداخل الذي يشكل زخارف هندسية من النوع المعروف بزخرفة الأطباق النجمية، وبانتهاء عصر الخلفاء الراشدين وانتقال مقاليد الأمور إلى الأسرة الأموية وبعدها إلى العباسيين، فكما سبق أن ذكرنا، مالت شرائح كبيرة من المجتمع بما في ذلك أولو الأمر منهم إلى البذخ والابتعاد رويدا رويدا عن روح التقشف الذي عرف به عهد النبي الكريم ، وكنتيجة لكل ذلك لم يبق أمامنا سوى البحث عن الستور في تزاويق المخطوطات والتي لا نجد فيها الكثير؛ فجميع المخطوطات العلمية والطبية المعززة بالرسوم التوضيحية غفل منها. ولا نجد في واقع الأمر سوى القليل من الأستار في مخطوطات علم الكلام والفلسفة والتي سبق وأشرت إلى بعضها، وتوجد أيضا في القليل من المخطوطات الأدبية وأهمها نسخ مخطوطات (المقامات الحريرية) المعززة بالصور التوضيحية الموزعة على المكتبات العالمية .وقد يعزى السبب في كونها هنا أكثر وجودا هو أنها عبارة عن قصص تدور أو ترتبط أحداثها ارتباطا وثيقا بحياة الناس الاجتماعية واليومية، فنرى الستور تنسدل على المجالس والقاعات والحجرات وغيرها.

The Curtain until the End of the Abbasid Era

(Types and methods that use it)

ABSTRACT

As is the case with clothes that hide the human body, the jackets and the collection Stor and Astar, is all that covers the aspects of the residential role and palaces. Which proves or hangs on the openings of windows and boards and others to hide what one wants to hide from the eyes of strangers and Almtasin; for this reason is the Constitution of the supplements or the necessities of feathers role and palaces as well as a lot of public buildings in this case must be the Constitution has also been the same in The windows were first piled up and the windows were still in use throughout the successive Islamic eras until the end of the Ottoman era in various Islamic regions, including in Iraq Most of them are intertwined wood, which is a geometric decoration of the type known as stellar dishes, the end of the era of the caliphs and the transition of the reins of the Umayyad family to the Abbasids .As already mentioned, large segments of the society, The textile industry has become one of the finest Arab industries and the most developed and perhaps the most profitable ,As a result of all this, we have no choice but to search for the Constitution in the reproduction of manuscripts, in which we cannot find much; all the scientific and medical manuscripts enhanced by illustrations overlooked. In fact, there are few manuscripts in the manuscripts of the science of speech and philosophy which I have already mentioned. There are also a few literary manuscripts, the most important of which are the copies of manuscripts (silks) reinforced with illustrations distributed to the world libraries. The reason why it is here more often is that it is stories that revolve around events that are closely related to people's social and daily lives. We see the constitution descending on councils, halls, rooms and others.

كما هو الأمر مع الملابس التي يستر بها الإنسان جسده فإن الستر والجمع ستور وأستار، هو كل ما يستر به جوانب من الدور السكنية والقصور.[1] ومن البديهي أن ينصرف الذهن هنا إلى ما يثبت أو يعلّق على فتحات النوافذ والمجالس وغيرها لإخفاء ما يريد المرء إخفاءه عن أعين الغرباء والمتلصّصين؛ ولهذا السبب تعد الستور من مكملات أو من ضرورات رياش الدور والقصور فضلا عن الكثير من المباني العامة فلابد والحالة هذه أن تكون الستور قد خضعت هي الأخرى وشأنها في هذا شأن الملابس إلى التذهيب والتحوير؛ فقد مرت بسلسلة من التطور والتحسين منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا.

والعرب، وشأنهم في هذا شأن غيرهم من الشعوب قد استعانت بها منذ العصر السابق على الإسلام والإشارات إلى ذلك كثيرة، منها ما جاء في القرآن الكريم،[2] وكذلك ما ورد في السنّة النبوية المطهرة حيث نجد أن لفظة (الستر) أو إحدى مسمياتها قد جاءت في أربعة عشر حديثا صحيحا كلها عند أصحاب الحديث المعروفين.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أيضا أنه على الرغم من أن الاستخدام المنطقي للستور هو أن توضع أو تنسدل على فتحات النوافذ الخاصة بالدور والقصور لستر ما وراءها فإن لمن الغريب حقا أننا لم نحظ بأية معلومة في المصادر العربية القديمة التاريخية أو الأدبية نستدل منها على مثل ذلك الاستعمال. فإن الإشارات التاريخية تتكلم كلها عن أستار تنسدل على المداخل الرئيسة لقاعات الاستقبال والأبواب أو المجالس والدهاليز فضلا عن الكوى والحنايا غير النافذة.

ومن الغريب حقا أن ليس بين أيدينا أية إشارة تاريخية إلى ستائر تنسدل على النوافذ ولا حتى بين الرسوم الجدارية أو في تزاويق المخطوطات المعززة بالصور التوضيحية أيضا ممثلة في تزاويق المخطوطات المعززة بالصور التوضيحية التي وصلت إلينا رسوما لأي ستارة تنسدل على نافذة ولا تفسير مقنع لذلك إلا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن النوافذ في الدور والقصور عموما كانت صغيرة الحجم نسبيا ويكون موقعها في موضع مرتفع من الجدار، كما أنها على العموم كانت مغايرة في تصميمها لما نعهده منها في أيامنا هذه. فالنوافذ التي كانت قد جعلت واطئة؛ أي بمستوى النظر تكون على نحو عام من النوع المخرم؛ أي أنها قد شغلت بمجموعة كبيرة متقاربة من الأضلاع المتقاطعة التي تشكل مجموعة كبيرة من الفتحات الصغيرة الضيقة المتقاربة التي تأخذ أشكالا زخرفية هندسية منسقة، منها ما يعرف بالزخارف الطبقية التي تعتمد على الأشكال النجمية والثمانية أو السداسية التي تحصر بينها مثلثات التي غالبا ما ترتب فيها قطع زجاجية عديمة اللون أو ملونة، فلا يمكن للمجتاز بها أن يتلصص أو أن يدقق النظر من خلالها ليرى ما هو موجود من خلفها. ويجب ألا يغرب عن البال أيضا أن الغرض الأساس من النوافذ في ذلك الزمن كان لإدخال ما يكفي من النور إلى داخل القاعات ليس غير، فلا يعقل والحالة هذه أن تحجب فتحاتها الضيقة بالستائر مهما كان نوعها. إن أقدم ما وصل إلينا منها من العصر الأموي ولك ضمن نوافذ المشيدة بالرخام المصقول الخاصة بالجامع الأموي في دمشق الذي أقام صرحه الوليد بن عبد الملك نحو سنة 88 هجرية (703م) (شكل1).

1 - ابن منضور، لسان العرب، مادة (ستر).
2 - الكهف، آية 92، الإسراء، آية 17

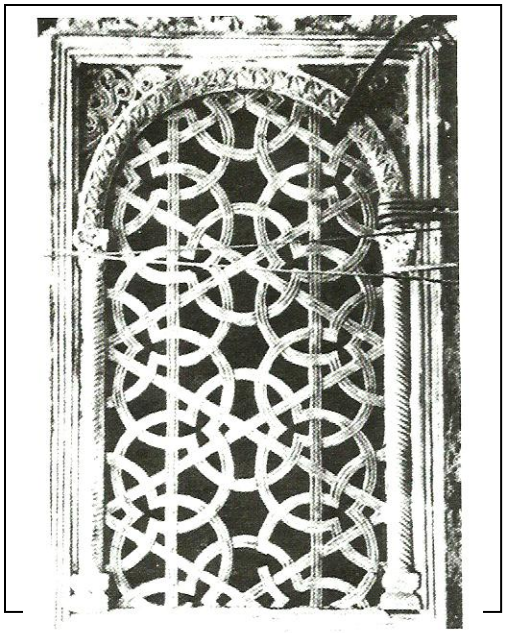

(شكل 1)
نافذة مخرمة من الجامع الأموي في دمشق
الربع الأخير من القرن الأول الهجري

وظلت النوافذ المخرمة في قيد الاستعمال عبر العصور الإسلامية المتعاقبة حتى أواخر العصر العثماني في مختلف الأقاليم الإسلامية ومنها في العراق حيث نلاحظ أن معظمها كان من الخشب المتداخل الذي يشكل زخارف هندسية من النوع المعروف بزخرفة الأطباق النجمية (شكل2).

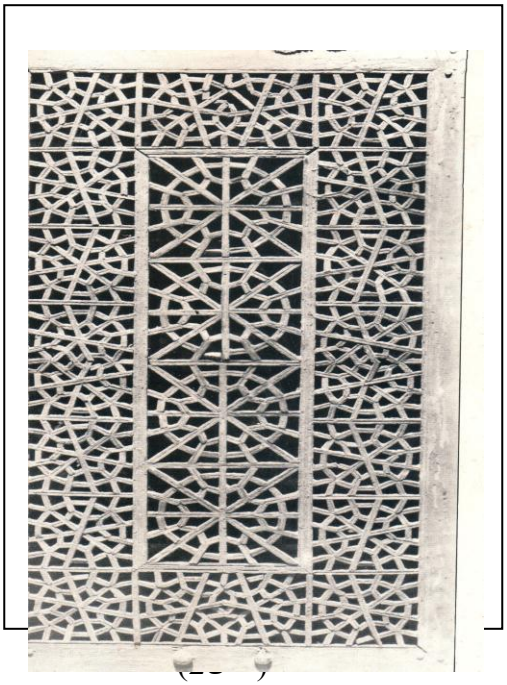

نافذة من الخشب لواحدة من الدور التراثية في بغداد

وبانتهاء عصر الخلفاء الراشدين وانتقال مقاليد الأمور إلى الأسرة الأموية وبعدها إلى العباسيين، فكما سبق أن ذكرنا، مالت شرائح كبيرة من المجتمع بما في ذلك أولو الأمر منهم إلى البذخ والابتعاد رويدا رويدا عن روح التقشف الذي عرف به عهد النبي الكريم، فما فتأت صناعة المنسوجات أن صارت من أرقى الصناعات العربية وأفضلها تطورا وربما من أكثرها ربحا، ليس فقط بسبب الحاجة الماسة إليها من قبل جميع طبقات الشعب بل كنتيجة مباشرة للتشجيع الذي حظيت به من لدن أولي الأمر في كل مكان، سواء ما يتعلق الأمر بصناعة الملابس أو بغيرها؛ فما برح الاهتمام عند الناس أن انصب على حسن اللباس ونظافته وجمال المسكن وأناقته التي باتت تنسدل على مداخله ومجالسه الستور الجميلة وحتى بعض جدران قاعاته الرئيسة التي قد يصل سعر بعضها إلى أكثر من ألف دينار. ليس هذا فقط بل كانت مجالسه وقاعاته وحجراته تفرش بالبسط الفاخرة والسجاد النفيس حتى ليذكر أن بإمكان السائح المتنقل بين كبريات المدن الإسلامية أن يتعرف على أي إقليم أو بلد هو فيه بمجرد التطلع أو فحص أنواع الستور التي تنسدل على المداخل والمجالس في تلك المدينة أو ذلك البلد.[3] أين هذا مما يرويه أصحاب السير أنه كانت على مدخل واحدة من حجرات رسول الله في المدينة المنوّرة ستارة بسيطة منسوجة من شعر الماعز لا يزيد طولها على ثلاثة أذرع (نحو 1،65 متر) وعرضها على ذراع واحد (نحو 55سم).[4]

أما عن المراكز التي كانت لها شهرة واسعة في صناعة الستور في العالم الإسلامي فقد عرفت عدة مدن في العصرين الأموي والعباسي في العراق وإيران وكذلك في مصر بنسج الستائر الفاخرة. ففي العراق مثلا اشتهرت مدينة (ميسان) بصناعة الستور الثقيلة التي كانت تصدر إلى مختلف الأقاليم الإسلامية،[5] وكذلك مدينتا (النعمانية) و(واسط) القريبتان من بعضهما والواقعتان على نهر دجلة حيث كانت ترتفع منهما في العصر الأموي المنسوجات الصوفية والقطنية وكذلك الستور ذات القيمة العالية. وظلت مدينة واسط في العصر العباسي تغذي الأسواق بإنتاجها من الستور حيث حافظت على الشهرة نفسها التي كانت لها في العصر الأموي إن لم تزد عليها. يشير إلى ذلك بوضوح الخطيب البغدادي (ت 463 هـ) الذي وصف جوانب من دار الخلافة بمناسبة زيارة سفير دولة الروم (الدولة البيزنطية) لبغداد في سنة 308 هجرية (920م) أيام خلافة المقتدر بالله (295-320 هـ/908-932م)، فقد كتب أن من جملة الستور الثمينة التي كانت تنسدل على ممرات ومجالس وقاعات الاستقبال الستور الواسطية الفاخرة.[6]

وكذلك بعض مدن بلاد الجزيرة عموما الواقعة بين دجلة والفرات ولاسيما مدينة الموصل التي كانت لها صناعات راسخة في عمل المنسوجات الفاخرة والاعتيادية بمختلف أنواعها التي من بينها صناعة الستور منذ العصر السابق على الإسلام، حتى ليذكر أن الملك الساساني سابور الثاني (309-379م) الذي ناصب العرب العداء وأذاق الكثير منهم مرّ العذاب؛ ليس هذا فقط بل أنه نقل عددا كبيرا من النساجين العرب الماهرين من هذا الإقليم إلى (تستر) وغيرها من المدن الإيرانية حيث أجبروا على إقامة صناعات نسيج متقدمة فيها كانت منها مناسج لإنتاج الديباج والستور والفرش وغيرها.[7] ومع ذلك ظلت تلك الصناعات قائمة في الموصل ومدن بلاد الجزيرة الأخرى عبر العصر الأموي والعصر العباسي الطويل، والتي من المؤكد أنها كانت تصدّر إلى مختلف الأقطار كما أفاد بذلك مؤرخو العصر العباس.[8]

3 - آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت 1967، 350/2
4 - ابن سعد، محمد، الطبقات الكبير، ليدن 1904، 92/8
5 - ابن الفقيه، أحمد بن ابراهيم، مختصر كتاب البلدان، لايدن، 1885، 253
6 - تاريخ بغداد، 102/1
7 - المسعودي، مروج الذهب، 359/1
8 - فريال المختار، المنسوجات الإسلامية، ص 51

ولم يكن العراق الإقليم الوحيد التي اشتهرت مدنه بنسج الستور الجيدة، فنحن نعلم من المصادر التاريخية أيضا أن بعض مدن مصر كانت لها شهرتها في هذه الصناعة؛ ليس هذا فقط بل كان لها قصب السبق في كافة أنواع المنسوجات وعلى نحو خاص الكتانية منها؛ وقد أشار الرحالة ناصر خسرو الذي مكث في مصر نحو أربع سنوات (439-442 هـ) إلى شهرة المدن المصرية بصناعة النسيج ولاسيما (تنيس) التي عرفت في أيامه : " **بحذاق النساجين الذين لا مثيل لهم في أي مكان في العالم**."[9] وأشار المقريزي عند تطرقه لخزائن الفرش والأمتعة في القصور الفاطمية أنه كانت بها من الستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف أنواعها وأطوالها عدة مئات، منها ستور فيها صور الدول وملوكها المشهورين مكتوب تحت صورة كل واحد منهم اسمه ومدة أيامه وشرح حاله.[10]

أما في إيران فقط ظلت مراكز النسيج القديمة في المدن قائمة فيها عبر العصور الإسلامية ولاسيما في صناعة الأنواع الجيدة من الستور؛ من تلك المدن (الري) و(مرو) وكذلك مدينة (تستر) التي مرت الإشارة إليها والواقعة خرائبها اليوم في إقليم الأهواز قرب (المحمرة). ولم تكن (تستر) المدينة الوحيدة في إقليم الأهواز التي ذاع صيتها في صناعة الستور بل اشتهرت أيضا مدينة (بصني) التي عرفت بنسج ضرب من السجاجيد الطويلة تعرف بـ(الأنماط) وكذلك بنسج الفاخر من الستور التي كانوا ينقشون عليها اسم مدينتهم، وكانت بعض مراكز النسج في المدن القريبة منها مثل مدينتي (برذون) و(كيلوان) تنسج الستور وتثبت عليها اسم مدينة (بصني) تدليسا في سبيل رفع أسعار الستور التي تنسجها في الأسواق.[11]

لقد كانت الستائر على أنواع مختلفة عرف كل نوع باسم خاص؛ منها ما يرتبط بأسماء شخصيات لامعة معروفة في المجتمع العربي والإسلامي؛ فهناك على سبيل المثال ما تعرف بالستور العضدية نسبة للأمير البويهي عضد الدولة (338-372 هـ/949-982م) والتي وصفت بأنها كبير ومنسوجة من الديباج كانت تعلق على المداخل الكبيرة والمجالس الرئيسة.[12] ومن أسماء الستائر (السدل) بضم السين أو كسرها؛ جاءت التسمية على الأرجح من كلمة (سدل) بفتح السين والدال؛ أي أرخاء الستارة، وليس من المستبعد أنها النوع الذي يرفع إلى الأعلى عند انتفاء الحاجة إليها مؤقتا وتنزل عندما تدعو الضرورة إلى ذلك. ولابد أن تكون هذه الستائر كبيرة وثقيلة؛ ترفع إلى الأعلى وتسدل ربما بطريقة مشابه للطريقة المتبعة في أيامنا هذه في رفع وخفض أستار المسارح، ولذلك لابد وأن تكون من ذوات اللقفة الواحدة غير مشقوقة الوسط.

إن من هذا النوع ستائر كبيرة غالبا ما كانت تضرب أمام مجلس الخليفة في العصر العباسي؛ إذا دخل الناس رفعت وإذا أراد الخليفة صرفهم أسدلت.[13] فكان هناك على الدوام في دور الخلافة شخصا مختصا بمثل ذلك الواجب يعرف بـ(صاحب الستارة). وقد ذكر بهذا الشأن أن الخليفة الطائع بالله (363-381 هـ/946-974م) أمر برفع الستارة التي كانت تتقدم مجلسه عند دخول الأمير البويهي عضد الدولة لدا استقباله له بدار الخلافة ببغداد في سنة 363 هجرية (946م) فضرب طرفها وجه الأمير وهو داخل. وكان

9 - سفر نامه، 14/2، وبصدد هذه المدينة أيضا يذكر ناصر خسرو أن فيها مصانع مكرّسة فقط لحياكة المنسوجات الخاصة بزينة الحمير والجمال وخيول السلطان؛ والغالب عليها ما يعرف عند الناس بالنسيج الطاووسي. ويذكر في موضع آخر بأن النسيج الطاووسي لا نظير له في العالم؛ من مميزاته أن أسلاك الذهب تدخل في نسجه (سفر نامه، 84/2-85).
10 - المواعظ والاعتبار، 417/1
11 - ياقوت، معجم البلدان، 442/1
12 - الصابي، هلال بن محسن، رسوم دار الخلافة، ص 101
13 - المصدر نفسه، ص 83

عضد الدولة قد بعث إلى دار الخلافة بستارة ديباج كبيرة من هذا النوع لتسدل أمام مجلس الخليفة وقد أوعز أن ترفع عند دخوله ليكون أول شخص يقع عليه نظر الخليفة عندما ترفع تلك الستارة.[14]

ويمكن أن نلاحظ هذا النوع من الستور في بعض رسوم المنمنمات الإسلامية، منها في تصويرتين من تصاوير نسخة من مخطوطة (رسائل اخوان الصفا) المنسوبة إلى بغداد المؤرخة من سنة 686 هجرية (1287م) المحفوظة في مكتبة جامع السليمانية في إستانبول (شكل3).

(شكل3)

واحدة من منمنمات مخطوطة (رسائل إخوان الصفا) المؤرخة من سنة 686 هجرية

ومع ذلك يبدو أن الطريقة التقليدية في رفع وخفض هذا النوع من الستور من ذوات اللقفة الواحدة عن طريق الحبال لم تستخدم دائما أو لم تكن متيسرة، ففي بعض الأحيان كانت تلف إلى الأعلى ثم تعقد في وسطها بحيث أن العقدة الكبيرة هذه تحتل موقعا عاليا في الهواء بحيث لا تلامس رؤوس الناس الداخلين أو المغادرين أو أن تحجب الرؤيا؛ وخير مثال على ذلك الستارة التي تتقدم مجلسا كبيرا أقيمت فيه وليمة زواج ببيت واحد من أعيان الناس في منمنمة من منمنمات المقامة الثلاثين في نسخة من مخطوطة (المقامات الحريرية) المحفوظة في متحف الهرمتاج التي يعود تاريخها إلى الفترة الزمنية .

14 - المصدر نفسه، ص 84

(شكل 4)
إحدى منمنمات المقامات الحريرية المحفوظة في متحف الهرمتاج بروسيا
النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي المحصورة بين سنتي 622-635 هجرية (1225-1235م)

ومن تسميات الستور ما له علاقة بنوع النسيج الداخل في حياكتها؛ فالرقيق منها كان يعرف بالشفوف؛ ومفردها (شف). يكتب ابن منظور أن بإمكان المرء أن يرى ما وراء ذلك الستر. ولابد من أن نوضح هنا أن لفظة (الشف) لم تقتصر على الستور بل كانت تطلق أيضا على الرقيق جدا من الملابس.[15] وعرف هذا النوع منها أيضا بـ(الكلّة) والجمع (كلل)؛ وأطلقت التسمية أيضا على الستر الرقيق الذي يخاط كالبيت؛[16] إنها تسمية لا تزال في قيد الاستعمال في العراق حتى الوقت الحاضر. ويذكر أنه كثيرا ما كانت الكلل تزين بشيء من النقوش الكتابية التي أغلبها من الشعر الرقيق.

ويسمى الثقيل من الستور بـ(الحجاب) غير أن اللفظة تطلق أيضا على الحجاب المصنوع من الخشب.[17] وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم: (**إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا.**)[18] ولا ندري إن كان المقصود بالحجاب هنا سترا من نسيج القماش أم حجابا من الخشب؛ فإذا كان

15 - ابن سيده، المخصص، 75/4. وربما من المفيد أن أستشهد هنا بالأبيات التي قالتها زوجة معاوية بن أبي سفيان البدوية عندما ضاقت ذرعا بحياة الترف في دمشق وحنّت إلى حياتها في البادية فأنشدت:
وبيت تخفق الأرياح فيه أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليّ من لبس الشفوف
16 - الوشاء، محمد بن إسحاق، الظرف والظرفاء، ليدن 1884، 232/2
17 - الصحاح، 107/1
18 - الإسراء، الآية 45

من النسيج فلابد أن يكون أن يكون قد نسج بخيوط غليظة نسبيا محبوكة حبكا جيدا تمنع النظر أو التطلّع من خلالها إلى ما وراءها.

أما الستور المشقوقة الوسط؛ أي من ذوات اللقفتين، فكانت تعرف بـ(السجف) التي عرّفتها المعاجم العربية القديمة أنها: " **الستر أو الستران المقرونان بينهما فرجة.**"[19] أي لابد من وجود شق بينهما، فكل شق أو لقفة منهما يسمى سجفا.

وكان هذا النوع من الستور على نوعين؛ ستور من النوع المألوف أي من النسيج المألوف التي نجدها عادة في الدور والقصور، أو أن تكون من السجاد الثمين الذي يتميز ليس فقط بالرقة بل لابد أن يكون قد استعين في خملته بما تعرف بـ(العقدة المزدوجة) double faced knot. إنها تشبه العقدة المتناظرة (العقدة التركية) غير أن خيوط الخصل (الخملة) تدور حول خيطين من خيوط السداة ثم تترك الخيط التالي لتلف حول الخيطين التاليين (شكل5)، إنها تستخدم في صناعة القليل من السجاد الثمين وعلى نحو أكثر في نسج الستور الوبرية.

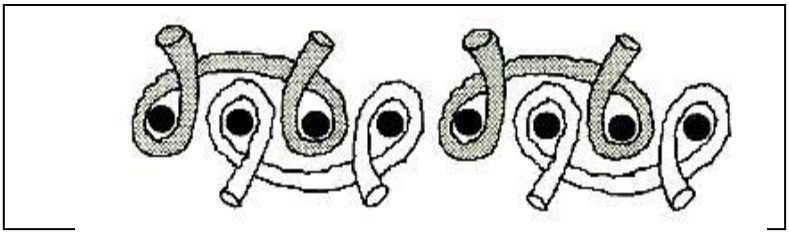

(شكل5)
العقدة المزدوجة الخاصة بالسجف
عن: P. F. Stone

المعقودة ذات الوجهين؛ إنها الستائر التي تعلّق عادة على بعض مداخل الدور أن تتدلى على فتحات قاعات الاستقبال أو أبواب المشاهد والعتبات المقدسة؛ تكون الخملة فيها مبثوثة على الوجهين عادة التي قد تكون على نسق واحد أو أن تكون العناصر الزخرفية مختلفة تماما؛ أي أن تكون متطابقة أو مختلفة. غير أن هذا النوع من السجف الذي ينسج خصيصا للعمارات الدينية مثل المساجد أو العتبات المقدسة وما شابه ذلك تكون زخارفها مقتصرة على العناصر النباتية والهندسية والنقوش الكتابية فلا يجوز هنا اطلاقا الاستعانة برسوم الحيوان أو بالأشكال الآدمية.

وفيما يتعلق بأماكن الخاصة بموضع (السجف) من الدور والقصور ذكر الجوهري انها تثبت في مقدم البيت.[20] ولا ندري على وجه اليقين إن كان ما يقصده هنا هو أن يعلق منها على المدخل الرئيس للدار فقط أم أنه ينسدل على باب أي قاعة أو حجرة كبيرة؛ الاحتمال الثاني عندنا هو الأرجح فالبيت قد يعني أية حجرة تتخذ للسكن. وقد أوضح ذلك الفيروزابادي الذي كتب أن: " **كل باب** (مدخل) **ستر بسترين مقرونين هو السجف**".[21] وهذا ما أكده الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني في معلّقته التي منها:

خلّت سبيل أتيّ كان يحبسه ورفعته إلى السجفين فالنضد[22]

19 - لسان العرب، مادة (سجف).
20 - الجوهري، الصحاح،1371/4
21 - القاموس المحيط، 1371/2
22 - ديوان النابغة الذبياني، ص 24

ومما يدعم هذا الترجيح أيضا ما نلاحظه في بعض تزاويق المخطوطات الخاصة بالمدرسة العربية في التصوير والتي نشاهد فيها أن السجف يتقدم مداخل بعض القاعات الواقعة ضمن مشتملات الدار الواحدة. فعلى سبيل المثال في المنمنمة الخاصة بدار العقاقير الطبية وتحضيرها التي توضح بعض فصول مخطوطة (خواص العقاقير) لديوسقورس المؤرخة بسنة 621 هجرية (1224م) والمحفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك (شكل6).[23]

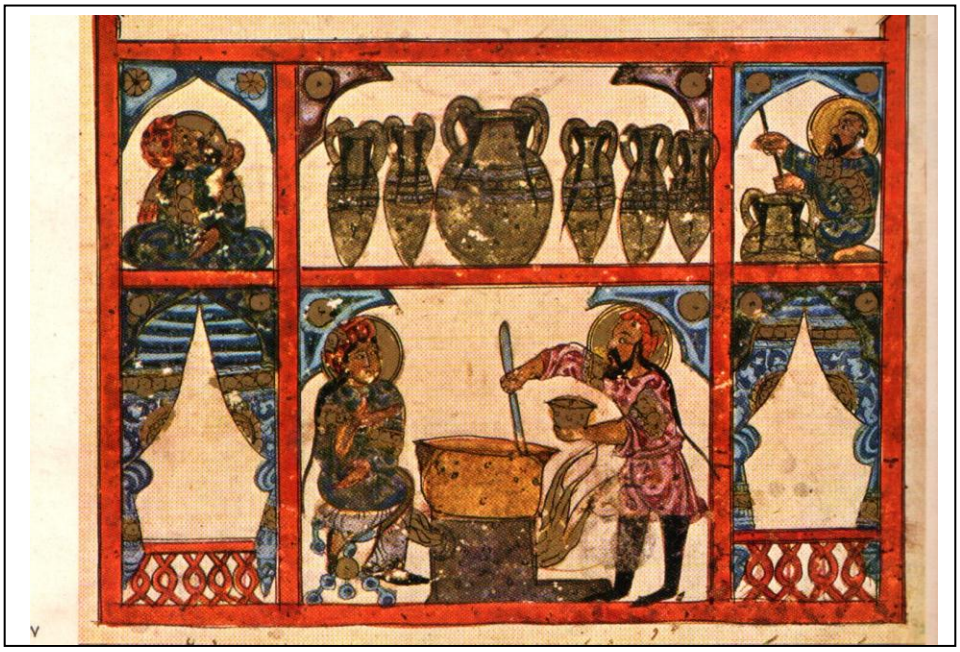

(شكل6)
صيدلية أو دار الأدوية في مخطوطة خواص العقاقير لديوسقورس
مخطوطة مؤرخة بسنة 621 هجرية محفوظة في متحف المتروبوليتان

ومن الجدير بالملاحظة أيضا أن الكثير من هذا النوع من الستائر نشاهدها تنسدل أمام المجالس الرئيسة في القصور ودور الخاصة في تزاويق المدرسة العربية في التصوير. ومن الواضح أن الستور التي ترتفع إلى الأعلى وتخفض إلى الأسفل لا تشكل إلا نسبة قليلة منها حيث أن معظمها لاسيما تلك التي تتقدم المجالس مشقوقة الوسط التي كانت تنزلق إلى الجانبين بواسطة حلقات مثبتة على مسافات معقولة في طرف الستارة العلوي يخترقها قضيب على الأغلب من المعدن يبتعد قليلا عن عوارض الخشب التي تعلو المداخل أو فتحات الإيوانات والمجالس والتي ترتبط بها بواسطة حوامل خاصة لتسهيل عملية انزلاق الستارة إلى الجانبين عندما تقتضي الضرورة ذلك. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأستار المتحركة جانبيا واضحة في تزاويق المدرسة العربية في التصوير التي تعود إلى العصر العباسي غير أن رسم الحلقات لا تظهر على نحو جلي إلا في تزاويق المخطوطات التي كتبت في العصر الذي أعقب سقوط الخلافة العباسية في سنة 656 هجرية (1258م)، منها على سبيل المثال في مصوّرة ضمن مخطوطة (جامع التواريخ) المحفوظة في متحف فرير Freer Gallery بواشنطن مؤرخة من سنة (734-736ه/ 1330-1333م) (شكل7).[24]

23 - Ettinghausen, R., Arab Painting, p.87
24 - Gray، B., Persian Painting, Skira, 1961, p. 32

منمنمة من مخطوطة قصة الملوك المؤرخة من سنة 1330-1333ميلادية
متحف فرير في واشنطن

ولابد أيضا من وجود طرقا أخرى أبسط من ذلك في تثبيت الستور؛ فنحن نعلم مثلا أن هناك أنواعا من الستور تعرف بـ(الحائطية)؛ وإن بين أيدينا إشارات إلى ستائر خاصة أو سجاد تعرف بـ(النجود) كانت تعلق على جدر القاعات الكبرى في بعض الأحيان؛ كتب بشأنها ابن سيده أنها: " **ستور البيت يزين بها**".[25] فمن الواضح إنها كانت تشد أو تثبّت على حيطان بعض قاعاته من أجل الزينة ومن ثم ادخال البهجة إلى نفوس أصحاب الدار أو ضيوفهم. وربما لهذا السبب نجد أن الحائطيات لم تقتصر على الستور فحسب بل شاركتها في العرض الفاخر من السجاد.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن هذه الطريقة اللافتة في العرض سواء كانت ستورا أو سجادا قد عرفت واستخدمت في كافة الأقاليم العربية والإسلامية بما في ذلك بلاد الأندلس؛ لبس هذا فقط بل وعرفت أيضا في أوربا في القرون عصر النهضة. فقد أفادت المصادر الأوربية أن أوربا كانت تستورد الكثير من هذا النوع من الستور من الدولة العثمانية بدأ بالقرن السادس عشر على الأقل وأن الكثير من تلك الستور أو أجزاء منها تحتفظ بها المتاحف العالمية ولاسيما متحف (فكتوريا وألبرت) بلندن ومتحف المنسوجات بواشنطن وكذلك في متحف طوب قابي سراي في إستانبول،[26] وهناك واحدة منها في متحف الكويت الوطني.[27]

25 - المخصص، 175/5

26 - Atil, Esin, The Age of Sultan Suleyman the Magnficent, NY.,1987, p. 207

27 - op. cit., fig. 145

ومما لا شك في أن أقدم الحائطيات التي عرفتها العرب في شبه جزيرتهم هي أستار الكعبة المشرفة فقد كانت العرب منذ العصر الجاهلي تكسوا الكعبة المشرفة من الخارج بالستور لتتدلى من جهاتها الأربع،[28] بما في ذلك الستر الخاص بمدخلها الوحيد.[29] ومن الواضح أن العرب التي أضفت على الكعبة المشرفة منذ ما قبل الإسلام صفة قدسية خاصة بأن كست جدرانها الخارجية بستور الديباج أو الحرير الثمينة. ففي العصر العباسي الأول كان الخلفاء هم الذين يتولون تجهيز وارسال كسوة الكعبة في موسم الحج. وقد ذكر أنه عندما حجّ الخليفة العباسي المهدي (158-169هـ/775-785م) في سنة 160 هجرية (777م) أنهى إليه سدنة الكعبة المشرفة أنهم باتوا يخشون من انهيار البناء بسبب كثرة ما عليها من الأستار، فأمر أن تنزع جميع الستور القديمة منها ويقتصر فقط على سترها الجديد.[30]

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي صارت الحجاز تابعة للدولة الفاطمية بعد سيطرتهم على مصر وطرد الإخشيديين منها واتخاذهم للقاهرة التي شيّدت من قبلهم في سنة 358 هـ/968م عاصمة لهم؛ فمنذ عهد خلافة العزيز أبي منصور نزار (365-387 هـ/975-996م)،[31] صار أمر إرسال أستار الكعبة المشرفة السنوية من نصيب الفاطميين حتى تغيّر الوضع وتبدل قبيل نهاية عهد خلافة الأسرة الفاطمية في مصر فاستعاد العباسيون السيطرة على الحجاز مجددا، وقد وصف الرحالة المغربي ابن جبير الذي كان قد قدم إلى الديار الحجازية في موسم حج سنة 479 هجرية (1183م) ركب أمير الحج العراقي وبمعيته كسوة الكعبة المشرفة وصفا دقيقا، فكما هو معروف أن كتابات الرحالة تكون على جانب كبير من الأهمية باعتبار أن ما يكتبه هو صورة للحظات التاريخية التي واكب فيها الحدث.[32]

لقد كتب: **" في يوم النحر سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال يتقدّمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطبول تهرّ وراءه، فوضعت الكسوة في السطح المكرّم أعلى الكعبة؛ فلما كان يوم الثلاثاء اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة تقيّد الابصار حسنا....وشمرت أذيالها الكريمة ... فلاح للناظرين منها أجمل منظر، وكأنها عروس جليت في السندس الأخضر..."**.[33]

وأضاف ابن جبير أنه في السنة التي حجّ فيها وهي 579 هجرية (1183م) كان عدد أستار الكعبة أربع وثلاثين ستارة موزعة على النحو التالي: تسعة منها تتسدل على كل من جداريها الشرقي والغربي وثمانية على كل من جداريها الشمالي والجنوبي. واضاف ابن جبير بأنها قد ثبّتت في أعلاها وأسفلها بحلقات معدنية زررّت بالجدران بواسطة أوتاد من الحديد لمنع انزلاقها أو سقوطها؛ وكانت الستور لا تخلع إلا عند تجديدها من عام إلى عام في أول موسم الحج.[34]

28 - كتب الأزرقي أن أول من كسا الكعبة المشرفة بالستور كان (تبّع) أحد ملوك اليمن الحميريين، (أخبار مكة وما فيها من الآثار، مدريد 1965، 134/1).

29 - وصف لنا الرحالة ناصر خسرو في حجته الرابعة سنة 442 هجرية (1050م) الستارة التي كانت على باب الكعبة بأنها صفراء منسوجة من الحرير، فعندما أراد السادن الولج إلى الداخل: "وقف على عتبة الباب يرافقه شخصان يمسك كل واحد منهما طرفا من أطراف الستارة .... ثم يعالج القفل حتى يفتحه وهو متوار خلف الستارة ... ويظل الشخصان يمسكان بطرف الستارة ويبسطانها إلى غاية منتهاها ثم يدخل زعيم الشيبيون (إن سادن الكعبة المشرفة وهو من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار) إلى داخل الكعبة ... إلى آخر الكلام. (سفر نامة، الرياض 1983، ص 153-154).

30 - السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، القاهرة 1952، ص 272

31 - إنه خامس الخلفاء الفاطميين وثاني الخلفاء بعد انتقال مقر الخلافة الفاطمية من المغرب الأقصى إلى مصر.

32 - رحلة ابن جبير، بيروت 1986، ص 137

33 - المصدر السابق، ص 140-141

34 - المصدر نفسه، ص 62

ومثل لنا أصدق تمثيل محمود بن يحي الواسطي في المنمنمة الخاصة بالمقامة الحادية والثلاثين في مخطوطة (المقامات الحريرية) المؤرخة من سنة 634 هجرية (1232م) المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس جانبا من الموكب العراقي الخاص الحامل لكسوة الكعبة ببيارقه أو ضجيجه بالأبواق أو القرع على الطبول، وكأن الواسطي قد وصف بريشته بواقعية مذهلة ما أوضحه ابن جبير بلغته السلسة الشيقة، بعد زيارته للديار الحجازية بما يزيد قليلا على خمسين عاما.

لقد أضفى الواسطي على الجمل الذي على ظهره المحمل لونا يختلف قليلا عن ألوان بقية الجمال. ويلاحظ هنا أن المحمل قد وضع فوق ظهر الجمل على بساط صغير أو طنفسة صغيرة أنيقة خضراء اللون محددة بشريط عريض يشغله سطر من كتابة كوفية زخرفية؛ وأن المحمل الحاوي لكسوة الكعبة ذو غطاء مدبب مكسو بالديباج الأصفر تتدلى منه ثلاثة بيارق أو بنود صغيرة (شكل8). ويمكن أن نتأكد من صحة شكل المحمل الذي صوره لنا الواسطي ومدى مطابقته لواقع الحال عندما نقارنه بمحمل مصري حقيقي كامل محفوظ في متحف طوب قابي سراي في إستانبول، كان قد أعده آخر سلاطين المماليك في مصر الملك الأشرف قانسوه الغوري (905-922هـ/1499-1516م).[35] إن نظرة واحده على هذا المحمل الخشبي كفيلة بإقناعنا بأن شكل المحمل الذي مثله الواسطي في منمنمته صحيح تماما ومطابق للواقع بسبب الشبه الكبير بين المحملين على الرغم من أن الفترة الزمنية التي تفصل بينهما تقرب من ثلاثة قرون.

(شكل 8)
أستار الكعبة المشرفة في محمل الركب العراقي إلى مكة المكرمة
كما صّرها لنا محمود بن يحي الواسطي في (المقامات الحريرية)
المكتبة الوطنية في باريس

35 - لقد قتل السلطان الأشرف في معركة ضد الأتراك العثمانيين في شمال مدينة حلب في سورية كان من نتيجتها أن زحفت الجيوش العثمانية واحتلت مصر.

وكانت العامة من الناس تعد تعليّق الستور الفاخرة في كل مكان في المناسبات المفرحة؛ من ذلك على سبيل المثال ما ذكره ابن الجوزي في معرض حوادث سنة 517 هجرية (1123م) أنه عندما عزم الخليفة المسترشد بالله (512-529 هـ/1118-1135م) على ختان أولاده وأولاد اخوته أذن للناس أن ببغداد يعملوا القباب ويعلقوا الستور عليها، وقد استمرت الاحتفالات سبعة أيام متتابعة.[36]

وليس من المستبعد أن الأوربيين قد تعلّموا من العرب عادة تعليق الستور والطنافس على الجدران خلال القرون الوسطى وفي عصر النهضة اعتزازا بها أو تثمينا لها وذلك من باب التباهي وإظهار الغنى والمركز المرموق أمام الآخرين. ليس هذا فقط بل أن الأوربيين في عصر النهضة كانوا يدلّون أو يسدلون ما عندهم من الطنافس أو الستور الثمينة من النوافذ والبلكونات في الأدوار العليا من دورهم أو قصورهم المطلة على الشارع، في الأعياد أو في المناسبات السعيدة.[37] فكما ذكرنا، ربما انتقلت تلك العادة إليهم من العرب إما عن طريق الأندلس التي كانت على اتصال مستمر مع أوربا، أو عن طريق التماس المباشر خلال الحروب الصليبية الطويلة التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر واستمرت حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي،[38] أو كنتيجة طبيعية للتجارة الحرة التي كانت تربط الشرق بالغرب.

إن هذا كل ما يتعلق بالستور من حيث شكلها العام وطرق تعليقها وأماكن استخدامها؛ أما ما يتعلق بزينتها ونقوشها فهناك بعضها غفل تماما من الزخرفة والتي عرفت في العصر العباسي بـ(السواذج) جمع ساذج أو ساذجة.[39] أما بالنسبة للستور المزخرفة فهي معروفة ومستخدمة في جميع أرجاء العالم المتحضّر بما في ذلك في قلب شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وفي فجره. ويبدو أن من الأسماء التي كانت تعرف به المزخرفة منها عند العرب عند ظهور الإسلام هو (المقرمة) أو (القرام) الذي كتب بخصوصه الجوهري أنه: "**ستر فيه نقوش**".[40] أما ابن سيده فيكتفي بالقول بأنه الستر؛[41] في حين كتب الفيروزابادي إن القرام هو: " **الستر الأحمر أو أي ثوب من الصوف فيه رقم ونقوش**".[42] بينما عرّف ابن منظور القرام أنه: " **الستر الرقيق وربما المنقوش أي المزخرف**".[43]

أما عن أقدم إشارة وردت في المصادر التاريخية العربية إلى (القرام) بمفهوم الستر المصوّر أو المزخرف جاء في حديث عن واحدة من زوجات النبي عليه الصلاة والسلام أنها قالت: " **دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل،[44] فلما رآه هتكه وتلوّن وجهه وقال: يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله.**"[45] ومما يؤكد شيوع الأستار المزخرفة في أيام النبي عليه الصلاة والسلام ما جاء في خطبة للإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عن أفعال رسول الله (ص) قوله: " **ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة (لأحدى زوجاته) غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها.**"[46]

---

36 - المنتظم، 245/9

37 - Johnson, H.W., A History of Art, London, 1974, p. 269, fig. 432

38 - Orpen, W., the Outline of Art. London, 1957, p. 233

39 - المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة 1304هـ، 73/1-74

40 - الجوهري، الصحاح، 2009/5

41 - المخصص، 175/4

42 - القاموس المحيط، 164/4

43 - لسان العرب، مادة (قرم)

44 - السهوة: الدخلة أو الحنية الغائرة في الجدار غير النافذة، أو أي شيء شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه أشياء (المخصص، 130/5). والمقصود بالتماثيل في حديث عائشة الصور الآدمية أو رسوم الحيوان.

45 - صحيح مسلم، بيروت 1987، 231/4

46 - نهج البلاغة، 313/1-314

ولا شك أن الإقبال على الستور قد ازداد على نحو كبير في العصرين الأموي والعباسي. ومن المفيد هنا أن أشير إلى ما كتبه الخطيب البغدادي الذي كتب أن عدد ما علق من الستور في دار الخلافة ببغداد عند الزيارة الرسمية للسفير البيزنطي لبغداد أيام خلافة المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) في سنة 205 هجرية (917م) بلغ ثمانية وثلاثين ألف من الستور السواذج والمنقوشة والمطرزة؛ ومن بينها اثنا عشر ألف ستر من الديباج المذهب الجليل، أو المصورة برسوم الفيلة والخيل والجمال والسباع.[47]

ولم يكن نصيب مصر في العصر الفاطمي بأقل من نصيب العراق حيث كتب المقريزي عند تطرقه إلى خزائن الفرش والأمتعة الفاطمية أنه كان بها من الستور الحريرية المطرزة بأسلاك الذهب على اختلاف أطوالها وأنواعها ما يقار عددها الألف على بعضها صور الملوك المشهورين؛ مكتوب تحت صورة كل واحد منهم اسمه ومدة أيامه. وقد وصف لنا الشاعر عمارة اليمني ستورا كانت تزهوا بها دار الوزير الفاطمي صالح بن زريك في القاهرة وذلك من جملة ابيات من الشعر يمدحه بها،[48] منها:

ألبسها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الروض أبيض أحمرا
بمجالس كسيت رقيما أبيضا ومجالس كسيت طميما أصفرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصوّرا

وليس من المستبعد أن السبب في كل هذا الاقبال على الستور المزينة برسوم الحيوان والأشكال الآدمية في العصرين العباسي والفاطمي المتداخلين أن عددا ليس بالقليل من الفقهاء المسلمين لم يجدوا بأسا في استعمالها بسبب الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه كل من مسلم والنسائي يفهم منه أن المنسوجات عموما سواء كانت ملابس أو ستور مستثناة من حكم كراهية أو تحريم رسوم الكائنات الحيّة من ذوات الأرواح.[49]

غير أنه مع كل الإشارات التاريخية إلى الأعداد الهائلة من الستور الفاخرة التي كانت تزهو بها دور الخلافة والقصور الخاصة وغيرها سواء كان ذلك في بغداد أو القاهرة أو قرطبة في الأندلس، فليس بين الطرائف والتحف المحفوظة في المتاحف العالمية في الوقت الحاضر أية قطعة نسيج كاملة أو يسيرة يمكن اعتبارها يقينا ستارة أو حتى جزء يسير من واحدة قد وصلت إلينا. وقد لا يعزى السبب في ذلك فقط إلى كون الستائر مادة عضوية السريعة التلف، بل أيضا أنها كانت على نحو عام كبيرة وثقيلة فلم تكن لتغري التجار كثيرا لاسيما الأوربيين منهم على شرائها ونقلها تلك المسافات الطويلة.

ومهما يكن من أمر ذلك فإن الستور عندما لم تعد صالحة للاستعمال في القصور نتيجة للبلى أو القدم أو بسبب تغيّر أو تبدل الطراز السائد في ذلك العهد (المودة)، كان يتم التخلص منها عادة عن طريق الهبة أو البيع ليعاد استخدامها على نحو آخر أقل شأنا، كأن تحوّل إلى أغطية للفرش أو أن تقطّع كوسائد أو أرائك أو غير ذلك.

وكنتيجة لكل ذلك لم يبق أمامنا سوى البحث عن الستور في تزاويق المخطوطات والتي لا نجد فيها الكثير؛ فجميع المخطوطات العلمية والطبية المعززة بالرسوم التوضيحية غفل منها. ولا نجد في واقع الأمر سوى القليل من الأستار في مخطوطات علم الكلام والفلسفة والتي سبق وأشرت إلى بعضها، وتوجد أيضا في القليل من المخطوطات الأدبية وأهمها نسخ مخطوطات (المقامات الحريرية) المعززة بالصور التوضيحية الموزعة على المكتبات العالمية. وقد يعزى السبب في كونها هنا أكثر وجودا هو أنها عبارة عن قصص

47 - تاريخ بغداد، 102/1

48 - أحمد تيمور، التصوير عند العرب عن: عمارة بن علي الحكمي اليمني: النكت العمرية في أخبار الوزراء المصرية'، باريس، سنة 1897

49 - ذكر مسلم عن بسر بن سعيد، قال: لما مرض الصحابي زيد بن سعيد فعدناه فإذا على بابه ستر فيه صورة. قال فقلت لعبيد الله الجولاني ربيب ميمونة زوج النبي (ص): ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول؟ فقال عبيد الله: ألم تسمعه حين قال: إلا رقما في ثوب. (صحيح مسلم، 329/4).

تدور أو ترتبط أحداثها ارتباطا وثيقا بحياة الناس الاجتماعية واليومية، فنرى الستور تتسدل على المجالس والقاعات والحجرات وغيرها.

فمن أولى الملاحظات على الستور الممثلة في تزاويق المخطوطات بعامة إن الزخرفة فيها تقتصر على الموضوعات النباتية والهندسية والنقوش الكتابية، فلا وجود بينها لرسوم الإنسان أو الحيوان؛ وتكون النقوش الكتابية عادة ضمن شريطين يقطعان الستارة أفقيا في جزئيها الأعلى والأسفل. ومن الملاحظ أيضا أن جميع النقوش الكتابية الممثلة في الستور زخرفية غير قابلة للقراءة حيث يقتصر أكثرها على حرفين فقط يتكرران بانتظام وعلى التناوب.

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الستور وغيرها من قطع الأثاث واللوازم الممثلة في المصورات هي من مكملات التكوين الفني وليست من الضروريات الأساس فلم يوليها الفنانون من الرسامين اهتماما خاصا قدر اهتمامهم برسوم الأشخاص في التزاويق التي تدور حولها موضوع القصة أو الحديث، في حين أن الكثير من الستور الحقيقية ولاسيما التي نسجت خصيصا إلى دور الخلافة أو قصور الطبقة العليا من الناس تضم نقوشا كتابية قابلة للقراءة أو على الأقل هذا ما كتبه بعض قدامى المؤرخين في العصر العباسي الذين ذكروا إن كثيرا ما كانت الستور في قصور الطبقة العليا في العالم العربي تزين أو تحلى بالإضافة إلى العبارات الدعائية المألوفة بأبيات من الشعر الغزلي الرقيق؛ منها على سبيل المثال ستارة كانت لبعض أولاد الخليفة المتوكل على الله (232-247 هـ/847-871م) نقش عليها:

يـا لائمـي فيـها لأصـرفـها أكثرت لو كان يغني عنك إكثار
ارجع فلست مطاعا إن وشيت بها لا القلب سال ولا في حبها عار[50]

وكتب ابن جبير على سبيل المثال عند وصفه لأستار الكعبة المشرفة إنها تحمل عبارات فيها ذكر الله جلّ شأنه ومن ضمنها أيضا دعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي كان قد أمر بعملها وغير ذلك من العبارات التقليدية المألوفة، إضافة أنها تحمل طرّتين ذهبيتين يؤطر كل واحدة منهما صف من دوائر بيض صغيرة متراصة في داخلها كتابات بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن الكريم.[51] إن وصف ابن جبير لهاتين الطرّتين تذكرنا بطرتين ذهبيتين يؤطر كل واحدة منهما صف من الدوائر البيضاء المتراصة تزين شقتي سجف دبلجته أنامل الواسطي في المقامة الخاصة بالمقامة التاسعة والثلاثين؛ ولا فرق بين الطرتين هنا ووصف ابن جبير سوى أن ساحة هاتين الطرتين لا تشغلهما كتابات بل زخرفة نباتية محوّرة.[52]

ومن الواضح أن معظم العناصر الكتابية والنباتية وغيرها المنقوشة على الستور الثمينة كانت منذ أقدم العهود تتم عن طريق التطريز حتى أن وردت إشارة إلى ستارة موشاه أي مطرّزة جاءت في حديث شريف أخرجه البخاري.[53] كما وردت إشارات واضحة إلى ستور ديباج مذهبة؛ أي مطرّزة بخيوط الذهب كانت تزين دور الخلافة ببغداد والقاهرة. أما غير الثمين منها فربما كان زخارفها تتم عن طريق الطبع بقالب خشبي خاص بعد الفراغ من عملية النسج.

ومن المؤكد أن الستور الفاخرة كانت تنسج على النول اليدوي كقطعة واحدة تكون جاهزة حال الفراغ من نسجها؛ ليس هذا فقط بل أن بعضها كان يتم حياكتها بالطريقة نفسها التي تتم فيها حياكة البسط غير أن الخيوط الداخلة في نسجها لابد وأن تكون أكثر رقة وأشد نعومة من الغزول التي تحاك بها البسط ولا يعزى

50 - الوشاء، 232
51 - الرحلة، ص 54
52 - Ettinghausen, op. cit., p. 121
53 - صحيح البخاري، كتاب الهبة، ص 37

السبب هنا إلى الناحية الجمالية فحسب بل أيضا من أجل تعليق الستائر ثم عمل الطيّات الضرورية الكثيرة التي لابد وأن تتم في الستائر وذلك عند سحب شقتي الستائر إلى الجانبين أو عند عقدها إلى الأعلى.

ومن البديهي أيضا أن تكون الستور الخاصة بالعامة من الناس أكثر بساطة من ستائر القصور ودور الخلافة أو دور السلطنة. ومع ذلك فإن الكثير منها كانت على الأرجح تفصّل وتخيط من قطع النسيج الطويلة التي كانت تنسج خصيصا لمثل هذه الأغراض. والسبب في اعتقادنا هذا أن أغلب رسوم الستائر في منمنمات المخطوطات بما في ذلك في الدور الكنيسة العادية هي معلمة الجانبين مما يدل أنه لم تقطّع وتفصل من قماش عادي.

ومن دراسة تزاويق المخطوطات يتبين للناظر أن الأساس في التقسيم العام للتصاميم الزخرفية الخاصة بالستور التي تبنّاها أو عمل بها النساجون العرب في الحقبة الأخيرة من العصر العباسي قد خضعت، أو على الأقل خضع الكثير منها، إلى الأساليب ذاتها التي اتبعت في زخرفة البسط وذلك باللجوء إلى نمط هندسي مميز للستور رتّبت أو قسّمت ساحاتها إلى حقول أفقية متناظرة في جانبيها العلوي والسفلي غير أنها متفاوتة في السعة.[54] ومن الواضح أن هناك اختلافا بين الستور والطنافس ليس فقط من حيث التقسيم العام للحقول والساحات وما شابه ذلك بل أيضا من حيث العناصر الزخرفية. فنجد في الطنافس أن الأطر التي يتراوح عددها بين ثلاثة وخمسة تحيط بساحتها من جوانبها الأربعة؛ في حين أن ساحاتها في الستور تحدد من الأعلى والأسفل باثنين أو بثلاثة حقول متفاوتة في العرص.

هذا بالنسبة للتصميم العام، أما من حيث العناصر الزخرفية فإنها بسيطة جدا في الستور قياسا إلى زخرفة الطنافس. إنها في الطنافس ليست فقط أكثر تعقيدا بل أن الوحدات والعناصر الزخرفية أصغر حجما وأشد اكتظاظا وأكثر غنا في الألوان مما نلمسه في الستور. ثم أن الغالبية العظمى من الطنافس هو من النوع الوبري المعقود في حين أن الستور من هذا النوع لا يشكل إلا نسبة ضئيلة جدا والتي لا نجدها في واقع الأمر سوى في بعض أنواع السجف الثمين ولاسيما تلك التي تتقدم فتحات المداخل الخاصة بالعتبات المقدسة في العراق وإيران.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار الستور الممثلة في تزاويق (المقامات الحريرية) الذي رسم منمنماتها الواسطي يمكن القول إن الستور الثمينة أكثر الأنواع شيوعا الخاصة بالطبقة المترفة من الناس في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في الأقل، نجد أن الكثير منها من ذوات الحقول الخمسة؛ تبدأ الستارة بحقل عريض نسبيا تشغله تفريعات نباتية مخلفة، يليه الحقل الأوسط وهو أكثرها سعة الذي يقابل ما يعرف بـ(الساحة). أما بقية الحقول وهي أربعة كل إثنين منها على طرف من طرفي السترة؛ الأقرب إلى الساحة يشغله شريط من الكتابات الكوفية الزخرفية؛ والثاني الأبعد تشغله مهاد من العناصر الزخرفية المنثورة.

ومن الستور الظاهرة في تزاويق المخطوطات ما يقتصر تصميمها على ثلاثة حقول فقط حيث تم الاستغناء عن الشريطين اللذين يضمان النقوش الكتابية ليقتصر الأمر على الحقل الواسع الوسطي محدد من طرفيه بحقلين أقل عرصا وبلون مغاير تماما للون الحقل الأوسط.

54 - عكاشة، ظهر الورق 114

(شكل9)
ستائر معلّقة في واحد من القصور
من مخطوطة المقامات الحريرية
الواسطي مؤرخة من سنة 1224م

ومن الستور ما تصاف إلى وسطة الحقل الأوسط الكبير في شقتي الستارة طرة دائرية مزخرفة عن طريق الوشي أو التطريز، كما نلاحظ ذلك في الستارة من ذوات الشقين الممثلة في المنمنمة الملحقة بالمقامة التاسعة والثلاثين (العمانية) في المشهد الخاص بالولادة (شكل9).

وفي بعض الستور الممثلة في المنمنمات لا نجد حقولا بل نجدا أن الستارة قد شغلت بتشكيلات زخرفية قوامها تفريعات نباتية متشابكة على نحو وحدات زخرفية متتابعة توحي للناظر أن الزخرفة قد تمت عن طريق القوالب الخشبية وليست عن طريق التداخل في النسيج أو التطريز. لو صدق حدسنا هذا فهذا يعني أن هذا النوع من الستور من النوع الأرخص ثمنا حيث كان يتم انتاجها على نطاق واسع تلبية لطلبات الطبقة المتوسطة الدخل من عامة الشعب.

المصادر

القران الكريم
1- ابن منضور، لسان العرب.
2- ابن الفقيه، أحمد بن ابراهيم: مختصر كتاب البلدان، لايدن، 1885.
3- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت 1967، الجزء 2.
4- ابن سعد، محمد: الطبقات الكبير، ليدن 1904، جزء 5.
5- ابن سيده، المخصص، الجزء الرابع.
6- أحمد تيمور، التصوير عند العرب عن: عمارة بن علي الحكمي اليمني: النكت العمرية في أخبار الوزراء المصرية'، باريس، سنة 1897.
7- أخبار مكة وما فيها من الآثار، مدريد 1965، الجزء الاول .
8- تاريخ بغداد، الجزء الاول .
9- الجوهري، الصحاح،الجزء الرابع .
10- ديوان النابغة الذبياني.
11- رحلة ابن جبير، بيروت 1986.
12- سفر نامة، الرياض 1983، الجزء الثاني .
13- السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، القاهرة 1952.
14- الصابي، هلال بن محسن، رسوم دار الخلافة.
15- الصحاح، الجزء الاول .
16- صحيح مسلم، بيروت 1987، 4الجزء الرابع .
17- صحيح البخاري، كتاب الهبة.
18- عكاشة، ظهر الورق .
19- فريال المختار، المنسوجات الإسلامية.
20- المسعودي، مروج الذهب، الجزء الاول .
21- المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة 1304هـ، ، الجزء الاول .
22- المنتظم، الجزء التاسع .
23- المواعظ والاعتبار، الجزء الاول .
24- نهج البلاغة، الجزء الاول .
25- الوشاء، محمد بن إسحاق: الظرف والظرفاء، ليدن 1884، الجزء الثاني .
26- ياقوت، معجم البلدان، الجزء الاول .

المصادر الاجنبية

1- Atil, Esin, The Age of Sultan Suleyman the Magnficent, NY.,1987.
2- Ettinghausen, R., Arab Painting.
3- Gray، B., Persian Painting, Skira, 1961.
4- Johnson, H.W., A History of Art, London, 1974.
5- Orpen, W., the Outline of Art. London, 1957.